

ترامب يحارب طواحين الهواء

محمد يوسف عدس

مثله الأعلى هو "دُون كيشوت" مدّعي الفروسية ، الذي ابتدع شخصيته الكاتب الأسباني والأديب العبقري "ميجل دي سرفانتس" في رواية له بنفس الإسم .. وقد وُلد سرفانتس ونشأ في مدينة قرطبة المدينة الأندلسية العريقة ؛ فليس من نافلة القول أن أزعَم أن سرفانتس تأثر بقصص الخيال الشعبي العربي ، يؤكّد هذا ملامح لا يخطؤها النظر في أبطال روايته ، ملامح تنتمي إلى شخصيات مألوفة لنا مثل: سيف بن ذي يزن وعترة والظاهر بيبرس.. ولا أستبعد أنه قرأ بعض الكتب التي أخفاها "المورسكيون" عن الأنظار [وهم المسلمون المتظاهرون باعتناق المسيحية، بعد المجازر التي قتل فيها المسيحيون المسلمون ومطاردة إخوانهم للفرار من أسبانيا].

صدر الجزء الأول من رواية سرفانتس عام ١٦٠٥م أما الجزء الثاني فلم يصدر إلا عام ١٦١٥.. ولم يتضح لنا فيم كان هذا الفارق الزمني الكبير!! لولا أن علمنا من سيرة سرفانتس أن حياته كانت شديدة الاضطراب ، وأنه لم يذق طعم الراحة والرخاء في دولة إمبراطورية كانت تشهد عز سلطانها وازدهارها ورخائها حينذاك .. بل تم سجنه في قضية مالية غير مفهومة ؛ ولعلها كانت تهمة زائفة ، لتبرير سجنه ؛ فقد كان سرفانتس متمردًا على ثقافة عصره الزائفة ، وكان مشكوكًا في ولائه للإمبراطور ؛ وهذا سبب كافٍ لاعتقاله.

مات سرفانتس سنة ١٦١٦م ؛ فقيرًا معدمًا مجهولًا ؛ لم يتذوق طعم الشهرة العالمية التي حظيت بها روايته بعد ذلك ، إذ جاءت على رأس أبداع الرويات العالمية ضمن منتي رواية أخرى لأشهر أدباء العالم .. وقد ذكر سرفانتس في مقدمته أن فكرة الرواية انبثقت في ذهنه وهو سجين .. ولكننا لانعلم إن كان قد أتم الجزء الأول منها وهو في السجن أم بعد إطلاق سراحه .. ويبدو بوضوح في كل سطر منها أنه كان يسخر من أفكار الفروسية الزائفة التي سادت زمنه ، في أوروبا وآسبانيا ، مقارنةً بما عرفه عن الفروسية العربية وأخلاق الفرسان العرب والمسلمين ..

اختار شخصية دون كيشوت من بين أولئك الشبان الذين أفسدت عقولهم قراءة القصص الخرافية للفرسان ؛ فقرر ان يمتطي صهوة جوادٍ هزيلٍ له ، واصطحب معه -كمساعدٍ وخدام- فلأحًا ساذجًا يجهل القراءة والكتابة ، اسمه "سانكوبانزا" ، ثم انطلق في الأفاق باحثًا عن مغامرات البطولة والفروسية .. وكيانه ينتفخ بمشاعر القوة والعظمة .

ثم تأتي النقطة الحاسمة التي تجمع في نظرنا شخصية ترامب ودون كيشوت ؛ حيث كانت حربته ضد " طواحين الهواء" هي أول معاركه ؛ فقد توهم انها شياطين ذات أذرع هائلة واعتقد انها مصدر الشر في الدنيا ، فهاجمها -غير مصغٍ الى صراخ تابعه وتحذيره من الاقتراب منها- ولكن دون كيشوت لم يعبأ بصراخه ورشقها برمحه فاشتبكت أذرعها

بثيابه ورفعته في الفضاء ، ثم دارت به ، فألقَتْ به أرضاً لتصطدم عظامه بالأرض فيصرخ من هول الألم .. لكنه نجا من الموت ولم يتعظ بأول تجاربه في أوهام الفروسية ؛ فمضى في خطته الخيالية يحارب الشياطين والأشرار، كلما لاحت له في أي مكان ..

أنت لا تستطيع أن تناقش بالمنطق والدليل عقلَ أحمقٍ ، مسكوناً بالهواجس والأوهام .. سواء كان صاحبه شخصية روائية من صنع الخيال كدون كيشوت الذي خرج يبحث عن أعمال الفروسية على ظهر حصان هزيل ، أو رئيس دولة كبرى يؤمن بالخرافات مثل دونالد ترامب ، الذي تركب ظهره شياطين الصهيونية ؛ يوسوسون له "إنه بحربه للإسلام والمسلمين إنما يقوم بأعمال بطولية" .. أو عسكري انقلابي يزعم أنه طبيب الفلاسفة وهو جاهل بأبسط قواعد الكتابة والقراءة ، ويقوم بدور حقير كدور الخادم سانكو بانزا، ولكن يظن أنه أحد فرسان العالم ..

نحن لا نجزع للانتصارات الوقتية التي تظنون أنكم تحققونها على الشعوب المقهورة .. ولن نملّ من توجيه خطابنا المنطقي المخلص إلى العقلاء والحكماء من بني جلدتكم لعلهم يقتنعون بأن ترامب وأمثاله لا بد من إعاقتهم عن مواصلة السير في طريق الإجرام الذي يستهدف به الآخرين ولكنه -أيضاً- سيرتد إليه شخصياً وإلى الشعب الأمريكي الذي يقوده رجل مجنون إلى طريق الهلاك ..

ولهؤلاء العقلاء نود أن نبرز هذه الحقائق التاريخية التي لا سبيل إلى إنكارها:

أولاً- لقد وضع المعتوه على رأس أولوياته منع المسلمين من دخول أمريكا ومحاربة هجرتهم وهجرة الملونين أمثالهم من جيرانه في أمريكا اللاتينية .. وهو في هذا يناقض نفسه وتاريخ بلاده أشد المناقضة .. فالهجرة كانت ولا تزال هي الرافد الأوحده في تعمير الولايات المتحدة الأمريكية بعد عمليات التصفية الجسدية المرّوعة التي قام بها المهاجر البريطاني الأبيض للقضاء على السكان الأصليين [الذين عرفوا باسم بالهنود الحمر].

ثانياً- يزعم ترامب أنه يريد أن يعيد أمريكا إلى عصر قوتها وأمجادها السابقة .. ولن أناقش موضوع القوة الأمريكية إذا كان يقصد القوة العسكرية أو الاقتصادية .. فهذه وتلك يمكن أن تصل إليه إي دولة كبرى تمكّنت من استخدام التكنولوجيا في صناعة السلاح .. وتستخدم جيوشها في السطو على المواد الخام والثروات المعدنية والبتروولية التي تملكها الشعوب الأخرى المجاورة والبعيدة .. وليس في هذا مجد يمكن الفخر به . ومن حقنا أن نسأل: أي مجد يقصده ترامب..؟! أي مجد حققته أمريكا في تاريخها كلّه ، ويريد ترامب أن يسترجعه للأمريكيين..!؟

لا شيء على الإطلاق .. فتاريخ أمريكا لا يعدو أن يكون سلسلة من الجرائم بدأت ؛ بحرب على الهنود الحمر وهم السكان الأصليون في الأمريكتين .. فبعد هزائمهم المرّوعة أمام القوى الغازية بأسلحتها المتقدمة ، تآزرت الجيوش الغربية مع أمريكا عليهم في عملية استئصال وإبادة ذات مراحل ثلاثة:

في المرحلة الأولى: تم تقليص أعدادهم عن طريق نشر الأوبئة والأمراض المعدية بينهم.

وفي المرحلة الثانية: كان الهدف هو التخلص من جميع رجالهم واستبقاء النساء والأطفال بهدف استعبادهم واستخدامهم رقيقًا للخدمة وزراعة الأرض ؛ وقد عرفنا من الوثائق الغربية والأمريكية أن القوات الاستعمارية كانت تقيم حصارًا على قرية بعينها ثم تشعل النار في أكواخ الأهالي ليموتوا حرقًا ، فإذا حاول بعضهم الهرب قتلوهم بالرصاص..

وفي المرحلة الثالثة: كان الهدف هو تصفية الوجود القبائلي لبقايا السكان الأصليين الذين انزلوا في الكهوف والغابات بعيدًا عن أنظار المستعمرين البيض.. وذلك بسنّ التشريعات القانونية التي تبيح قتلهم أينما وجدوا . وقد ظلت آثار هذه المرحلة باقية إلى زمن قريب ؛ حيث كان من حق الرجل الأبيض أن يقتل أي هندي أحمر ، فإذا سلخ فروة رأسه وسلّمها لأقرب مركز شرطة نال على هذه الجريمة جائزة مالية..

وهكذا بعد سلسلة من المذابح الوحشية وجرائم الإبادة الجماعية قضت أمريكا على الهنود الحمر] تؤكد التقارير أنه قد راح ضحية هذه الأعمال البربرية أكثر من مئة مليون آدمي ، يرتفع رقمهم في بعض الإحصاءات الغربية إلى ١٢٢ مليون] ، ولم يبقَ لها من تستخدمه في زراعة الأرض فاتجهت إلى أفريقيا لصيد السود وشحنهم إلى أمريكا في سفن لا تليق بشحن الحيوانات .. حيث مات منهم الملايين من الجوع والقيود الحديدية وسوء المعاملة.. ولاسترقاق السود قصة دموية أخرى تكررت فيها أعمال القنص والتعذيب البشعة التي قام بها البيض ضدهم .

وخلال خمسين عاماً فقط تم خطف وترحيل ما بين ١٥ إلى ٤٠ مليوناً من الأفارقة الأحرار حيث تم بيعهم كعبيد في أسواق أمريكا وأوروبا .. ونلاحظ أن المصادر الغربية ذاتها تؤكد أنه من بين كل عشرة أفارقة كان يتم أسر واحد فقط واستعباده ، بينما يلقي التسعة الآخرون مصرعهم إما برصاص الغزاة البيض ، وأما جوعاً و عطشاً أو انتحاراً بإلقاء أنفسهم للغرق في المحيط ، من على ظهر السفن التي كانوا يحشرون فيها كالماشية ، وكثير منهم كان يلقي حتفه اختناقاً بسبب تكديس المئات منهم في أقبية السفن في مساحة بضعة أمتار بلا تهوية أو طعام أو مراحيض لقضاء الحاجة!! وكثيراً ما كان البحارة يقتلون المئات من الضحايا لأي بادرة تمرد ؛ فيلقون بجثثهم في البحر. وعلى ذلك فإن ما لا يقل عن مئة مليون أفريقي قد لقوا حتفهم في ٥٠ عاماً فقط خلال ملاحم "اصطياد العبيد" من القارة المنكوبة .

لقد جرت على الأرض الأمريكية محاولات لتحرير العبيد من الرقّ المفروض عليهم حتى بعد صدور قوانين لإنهاء الرق في العالم .. ولكن العنصرية الأمريكية ظلت مشرعة أمام هذه الجهود الرامية إلى المساواة بين السود والبيض في الحقوق المدنية والسياسية والاجتماعية .. و بقيت آثار هذه العنصرية قائمة حتى سنة ١٩٦٤م عندما صدر قانون الحقوق المدنية للسود في عهد الرئيس جون كينيدي ، الذي عوقب بالاغتيال من جرّاء هذا

الموقف الجريء .. وقد صاحب ذلك اغتياالات أخرى غامضة لزعماء تحرير السود في أمريكا أمثال دكتور "مارتن لوتھر كنج" ، والزعيم الأسود المسلم "مالكوم إكس" ..

فعن أيّ أمجاد يتحدث سليل الأوغاد وعن أي مرحلة وعن أي زمن كانت هذه الأمجاد .. منذ بداية الولايات المتحدة في سنة ١٧٧٣ إلى اليوم..؟! - في زمن مذابح الهنود الحمر أم في زمن خطف واسترقاق الأفارقة السود .. أم في زمن الاسترقاق المنظم بتشريعات وقوانين..؟! أم في زمن "عصابات الكوكلوكس كلان"!! - وعلى الأرض الأمريكية..؟! أم في مستعمراتها بالفلبين وكوبا وهايتي وبنما وبورتوريكو..؟! أم في سجون العار الأمريكي في جوانتانامو ، و أبو غريب وبوكا العراقيين ، أم في باجرام ، والسجون التسعة السرية في أفغانستان ، أم في المستعمرة الأمريكية الصهيونية بفلسطين..؟! أين ومتى كان لأمريكا أمجاد تفخر بها !!؟

أقول: إن تحرير السود الذين أصبحوا أمريكيين بمقتضى القانون الأمريكي لم يتحقق أبدًا من الناحية العملية بسبب الاستعلاء والعنصرية الأمريكية الغائرة حتى النخاع .. مما جعل فريقًا منهم يدركون أن خلاصهم الحقيقي ليس في اعتناقهم المسيحية التي لم تحصّنهم من سوء المعاملة ؛ فقد وجدوا أن كنائس البيض تحرّم عليهم دخولها حتى لو اعتنقوا المسيحية .. وكانت إلى عهد قريب بعض محلات ومطاعم البيض ترفع لافتات "ممنوع دخول السود" ولم يجدوا إلا الإسلام الذي يحفظ لهم كرامتهم الإنسانية ويسوي بين جميع البشر دون اعتبار للون أو جنس أو لغة ، فأقبلوا عليه .. ولم تفلح الحملات الدعائية ضد الإسلام والمسلمين حتى في منع البيض من أن يجدوا طريقهم إلى الإسلام في أحلك الظروف الممنهجة لتشويه الإسلام والمسلمين.

وهنا يجب أن نعترف بأن للإسلام وللحضارة الإسلامية وللقرآن بصفة خاصة - وعلى مرّ التاريخ- قوة سحرية أسرة ، و قدرة على إجتذاب كل من يتصل بالقرآن يبغى البحث عن الحقيقة بإخلاص وتجرد .. حتى أولئك الذين تحدّوا الإسلام والحضارة الإسلامية في بادئ الأمر ، وناصبوا المسلمين العدا .. بل أسرفوا في قتلهم وتدمير بلادهم كما فعل المغول والتتار.. ولكنهم سرعان ما اعتنقوا الإسلام وكرّسوا أنفسهم لخدمته ونشره ومواصلة حضارته في أنحاء الأرض.

ذلك لأن الإسلام دين لسائر البشر وليس مقصورا على قومية بعينها او جنس أو لون .. ولا يعترف بالطبقات ولا الإمتيازات ولا الحقوق الإلهية الموروثة ولا يقرّ بالتفوق العنصري لجنس على جنس آخر.. وليس في قيمه الثقافية مكان لاحتقار البشر أو إستعبادهم أو قهرهم .. ومن ثم كانت حضارته ساحرة أسرة إستوعبت كل أنواع البشر.. وأسهمت كل الشعوب التي عاشت في كنفها بأفضل ما تملك من مواهب وإبداعات ..

هنا تتجلّى عبقرية الحضارة الإسلامية في واحدة من أخص خصائصها وهي أنها أطلقت الحرية الكاملة للشعوب لكي تبعد وتعطى وتشارك ، وتنهّل في نفس الوقت من ثمرات هذه الحضارة وتنعم بخيراتها ...

وبنظرة واحدة محايدة يدرك الإنسان مدى الفرق الهائل بين هذه الحضارة ، وبين الحضارة الغربية التي مكّنت أوروبا من قهر الشعوب في ثلاث قارات لتذهب ثرواتها وتستعبدها وتتركها بعد ذلك فريسة للفقر والتخلف .. بعد أن استقطبت فئات من أبنائها عبيدًا لها -مكّنتهم من التعليم والسيطرة والسلطة على شعوبهم .. ليستمر النهب والإستعباد مسلّطًا على هذه الشعوب ولتستمر مصالح الغرب الأنانية قائمة إلى الأبد ..

هذه هي الصورة الحقيقية للعلاقة الآثمة بين الغرب وأمريكا وبين الشعوب الأخرى: [فمن وجهة نظرهم] هي علاقة السيد المسيطر بالعبد المقهور .. علاقة النبيل بالوضيع .. المتأله العبقري بالحشرة الغبي .. العالم المخترع بالجاهل الذي لا يقدر على تسيير أموره بنفسه .. الغني المتفضل بالشّحاذ المتسوّل ... صاحب الشرف والوجاهة و الكرامة بالخسيس الدني الحاقد و الإرهابي المخرب .

من هذه العقيدة الغربية الراسخة تصدر كل الإساءات والهجمات الإعلامية على الإسلام وعلى القرآن وعلى نبي الإسلام .. هذا مايقولونه في صحفهم وفي كتبهم وتصريحاتهم [وماتخفى صدورهم كان أعظم] .

وإن بقيت كلمة نقولها لدون كيشوت الأمريكي ، ولخادمه سانكوابانزا المصري لن تفيدكم الحرب على الإسلام ، ولن تفلحوا في القضاء عليه لا في مصر ولا في أمريكا ولا في فلسطين ولا في أي مكان بالعالم.

أعلم عن يقين أن أمثال هؤلاء العنصريين المتعصبين الكارهين للإسلام لن يتوقف أحد منهم ليستمع إلى نداء العقل ، ولن يفهم إذا سمع .. لن يتوقف عند حدود المنطق والواقع والحقائق التاريخية ؛ فمثل هؤلاء لا تعنيهم هذه الحدود ، و لن يردعهم نصح الناصحين عن سلوك طريق السراب حتى نهايته .. فذلك مصير كوني محتوم ، يصفه القرآن في آية واحدة حاسمة: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} ..

تقول ولكن هذا غيب من الغيب الذي لا يؤمن به أكثر الناس على هذه الأرض..! ونقول فليكن .. الزمن بيننا وبينكم وسترون العاقبة: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ} .. {فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}.

myades34@gmail.com

تم نشر المقال بجريدة الشعب في ٤ مارس ٢٠١٧م